ناجيه عاقل مراني

الحب بين تراثين

التروبادورز الفرنسيون والعشاق العذريون

١
مقدمة تاريخية :

كيف انتقلت الافكار العربية الى اوروبا

في مقاطعة بروفنس الفرنسية المتاخمة للحدود الاسبانية ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، شاع نوع من شعر الحب او الغزل كما نسميه في اللغة العربية . هذا الشعر كان غريبا عن الفكر الاوربي انذاك ، غريبا باوزانه وغريبا بالافكار التي احتواها وعبر عنها . اما الاسم الذي اطلق على شعراء هذه المدرسة فهو التروبادورز Troubadours ، وسمي شعرهم بروفنسال Provencale نسبة الى بلدتهم ، ثم عرف الحب الذي عبروا عنه في اشعارهم باسم كورتلي لف Courtly Love

لهذا الشعر اهمية عظمى في تاريخ الادب الاوربي ، اذ يعتقد الادباء الغربيون المعاصرون ان الاراء والافكار التي عبر عنها هذا الشعر كان لها المكانة الاولى في تكوين خلفية الادب الاوربي طيلة القرون التسعة الماضية ، هذا من الوجهة الادبية ، اما من الناحية الاجتماعية فان هؤلاء النقاد يعترفون بان الاراء التي جاء بها التروبادورز في اشعارهم تكون الحجر الاساسي في اصول اللياقة (الاتيكيت في اوربا) ، حتى ان فكرة تقديم المراة واحترامها السائدة في المجتمع الغربي اليوم لم تكن الا بتاثير ما اتى به التروبادورز في اشعارهم ، اذ انها الاراء التي خلقت اوربا الحديثة كما يقول لويس وسنجر وغيرهما . (١)

لطرافة وغرابة الاراء التي جاء بها التروبادورز من جهة ، وللاثر العظيم الذي تركه شعرهم في الفكر الاوربي من جهة اخرى ، قام عدد كبير من ادباء الغرب ومفكريه بتحليل هذا الشعر والتنقيب عن اصله ومورده بين الافكار التي كانت شائعة في زمانه وفي الازمنة التي سبقته. فمنهم من يعود به الى الاغريق ، ومنهم من يومىء الى الشاعر الروماني اوفد Ovid ، وفريق منهم يذكر المسيحية ، واخرون يذكرون اثر الادب العربي في تكوين ذلك الشعر ، ولكن رأيا واحدا لم يثبت حتى الان ، وفندت النظريات المطروحة في هذا الشان لسبب او اخر. (٢)

(١) I. Singer , The Nature of love, Plato to luther ,
See also , C. S. Lewis , The Allegory of love , 2 - 7

(٢) انظر خلاصة الابحاث عن الموضوع في :
T. Silverstein, « Andreas , Plato, and the Arabs,» Modern philology , XLII (1,42-50) , 117 - 126 ,

ان الغرض الاساسي من هذا البحث هو دعم النظرية القائلة ان التروبادورز تأثروا بالادب العربي . وطريقتي هنا تقوم على عرض اوجه التشابه والتلاقي بين آرائهم واراء الشعراء العرب في الحب ، كما وردت تلك الاراء والافكار في شعر الطرفين من جهة ، وفيما اورده الكتاب والفلاسفة عن الحب في كل من العالمين العربي والاوربي انذاك من جهة اخرى . ولان التشابه في الفكر وحده لا يحدد اصل تلك الفكرة وموردها ، فقد لا يعدو ان يكون في نظر البعض ضربا من المصادفة وتوارد الخواطر لا سيما في موضوع كوني كالحب ، لذلك وجب ان ندعم التشابه الذي نسعى لاثباته بحقائق اخرى لا تقل عنه خطورة . واهم تلك الحقائق واجدرها بالاعتبار ما يلي :

١ ـ غرابة الاراء الواردة في شعر التروبادورز عن التراث الاوربي حتى القرن الحادي عشر الميلادي من جهة ، ووجودها كجزء اساسي في الادب العربي قبل ذلك التاريخ بما يزيد على اربعة قرون من جهة اخرى .

٢ ـ الطرق والوسائل التي تسربت بها تلك الافكار من العرب الى اوربا ولا سيما خلال الوجود العربي في القارة الاوربية .

اما غرابة اراء التروبادورز في الحب عن التراث الاوربي فقد ايدها الكثيرون ممن اختصوا بالكتابة في هذا الحقل من نقاد اوربا واميركا المعاصرين . فقد كتب شارلس لويس في كتابه الشهير The Allegory of love ما يلي :

ان الحب قد يكون ـ في ظروف خاصة ـ عاطفة نبيلة ونحمل على النبل . ذلك مبدأ نقبله الان . اما اذا تصورنا اننا نشرح ذلك المبدأ لارسطو ، فرجيل ، القديس بول ، او المؤلف بيوولف، حينذاك نحس ان ذلك المبدأ ابعد ما يكون عن طبيعة الاشياء . (٣)

وينظر موريس فالينسي الى حب التروبادورز نظرة مشابهةلصاحبه الكاتب الانكليزي لويس ، اذ يقول :

ان المذهب الذي اتبعه التروبادورز في اشعارهم في القرن الثاني عشر الميلادي يختلف اختلافا جوهريا عما افصحت عنه تلك النماذج البدائية من شعر الحب الواردة في تراثنا . والغريب ان شعر التروبادورز في تمجيد المراة وجد وازدهر في مجتمع ينظر الى المراة كمخلوق ناقص العقل ومسبب للضرر والقلق . (٤)

(٣) Lewis , op. cit . , 3 .

(٤) M. Valency , In Praise of love, I.

ويحدثنا الاديب الفرنسي دنيس دي رجمنت عن بدعتين جديدتين ظهرتا في اوربا لاول مرة خلال شعر التروبادورز ، ويتساءل الكاتب المذكور ان كانت تلك البدعتان قد هبطتا على اوربا من السماء . اما البدعتان فهما :

صورة للمرأة مغايرة تماما ما عهدناه في تراثنا – امرأة تبدو وكانها ارفع من الرجل ، وكانها هدفه الاعلى المنشود ، هذا من جهة، ومن جهة اخرى ، هذا الشعر ، جديد ، الا انه منظور عميق مهذب، شعر غير معروف لدى القدامى (٥)

ويقرب ايرفنك سنجر لويس ورجمنت في نظرته الى موطن الغرابه في شعر التروبادورز وفي حبهم . فيذكر ان اغرب ما في ذلك الشعر هو اتخاذ المرأة هدفا ساميا يحق للرجل تمجيده وبذل النفس والنفيس في سبيله . يقول سنجر :

كان المجمع الاغريقي يعتبر الحب ظاهرة رجالية فقط ، علاقة رجل برجل . اما علاقة الرجل بالمرأة فلا تعدو الجانب الجسدي ،وما كانت يوما تأملا روحيا . قد تصل تلك العلاقة الى درجة من الانسجام والتهذيب ، ولكنها ما كانت يوما محلا للتبجيل ، ولا شيء لدى الاغريق اجدر بالاحتقار والاشمئزاز من منظر رجل يفني نفسه في سبيل الحصول على امرأة . (٦)

ثم يعود سنجر فينفي اية علاقة تشابه بين التروبادورز وبين اوفد ، لان الاخير – على رأي سنجر غريب كل الغرابة عنالتروبادورز، فهدفهم في الحب نبيل خلاق ، بينما هدف اوفد محدد الافق .ويستطرد سنجر قائلا : « ان الشاعر الانكليزي جوسر يؤكد ان الحب مشروع جدي ، ولكن جدية الحب امر مخجل بنظر اوفد » .(٧)

اما نظرة المسيحية الى حب التروبادورز فلم تكن بخير مما ذكره الكتاب الذين اشرنا اليهم سابقا . فالمرأة التي يمجدها التروبادورز هي بنظر المسيحية ام الخطيئة ، وهي وراء حرمان ادم من الجنة، لذلك يؤكد الاب الكسندر دنومي ان القانون الذي ابتدعه التروبادورز في الحب والذي كتب بموجبه الشاعر الانكليزي جوسر قصته الشهيرة ترويلس وكرسيدا Troilus an Criseyde ذلك القانون الاخلاقي ، بعيد كل البعد عن التعاليم المسيحية التي تعتبر مثل هذا الحب كفرا ، وقد لعنته الكنيسة قبل ان يكتب جوسر قصته بمئات السنين .(٨)

ان العرض السريع لاراء الكتاب والنقاد الغربيين في حب التروبادورز ليعطينا الدليل الواضح على ان ذلك الحب كان حدثا غريبا عن التراث الاوربي . ولكن المطلع على التراث العربي يجد ان مثل هذا الحب يشكل جزءا لا يتجزأ منه . ان اشعار الغزل والنسيب التي سوف نتمثل بها في معرض المقارنة في الفصول الاتية لتشكل اهم جزء من تاريخ الادب العربي منذ ان عرفنا ذلك التاريخ . فهناك اخبار واشعار تروي لشعراء عشاق في الجاهلية والاسلام وفي العصر الاموي وزمن العباسيين وايام الاندلس . نذكر من هؤلاء الشعراء الذين شهروا بالعشق منذ الجاهلية وفي زمن الدولة الاموية المرقش الاكبر وصاحبته اسماء ، عبدالله بن عجلان صاحب هند ، الصمة صاحب ريا، عروة بن حزام وصاحبته عفراء ، مجنون ليلى ، جميل بثينة، كثير عزة، قيس لبنى ، توبة وصاحبته ليلى الاخيلية وغيرهم . وحين ينقضي

---

(٥) D. Rougemont, Passion and Society , 76 .

(٦) Singer , op. cit . , 51 - 52 .

(٧) Ibid . , 147 .

(٨) A. Denomy , « The Two Moralities of chaucer,s Troilus and Criseyde , » Transaction of the Royl Society of Canada , XLIV , sec . 2 (1750) , 35 - 46 .

عهد العذريين ورهطهم ، تستمر اهاتهم وخلجات قلوبهم فتتمازج مع اهات شعراء عشاق اخرين كالعباس بن الاحنف في بغداد (٧٥٠ – ٨٠٨) وابن زيدون في الاندلس (١٠٠٣ – ١٠٧١) . (٩) هذا ما يجده المطلع على تاريخ الادب العربي . اما في اوربا فان اقدم تروبادور عرف في تاريخ الادب الاوربي هو وليم التاسع كونت بواتيه ، وقد حكم من (١٠٨٧ – ١١٢٧) . (١٠)

مما سبق تظهر لنا جليا حقيقة اسبقية التراث العربي باحتوائه على شعر الحب وحكايات المحبين واخبارهم . بقي ان نذكر الوسائل التي يحتمل ان تكون الاراء والافكار التي احتواها ادبنا قد تسربت بها الى الغرب . ومن المعروف ان تسرب اية فكرة وانتقالها يتم باحدى الوسيلتين الاتيتين :

١ – التماس المباشر بين الشعوب عن طريق اللقاء والسماع والقراءة ، وذلك يتطلب بالدرجة الاولى معرفة اللغة .

٢ – التماس غير المباشر وذلك عن طريق الترجمة .

لقد تم تسرب الاراء والفكر التي احتواها الادب العربي وانتقالها الى الغرب بالطريقتين المباشرة وغير المباشرة معا . فقد تملك العرب الاراضي الاوربية واستوطنوها حقبة تقارب ثمانية قرون ، ابتداء من عبور القائد طارق بن زياد المضيق المعروف باسمه الى اسبانيا سنة ٧١١ م . اذ تلا ذلك الفتح الاسلامي لمعظم اسبانيا ، حيث استقروا هناك واسسوا ملكا ومجدا وحضارة استمرت حتى سقوط غرناطة على ايدي فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٨٤ م . وكان العرب من جهة اخرى يحتلون معظم جزر البحر المتوسط والشواطيء الايطالية ولهم ممتلكات في قلب ايطاليا استمرت ما يزيد على ثلاثة قرون . (١١)

لقد اعترف الاوربيون انفسهم بان اللغة العربية كانت تنتشرفي الاقطار المفتوحة بسرعة معجزة حتى لكانها النار في الهشيم ،(١٢) الامر الذي دعا الاساقفة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية سنة ٧١٩ م وذلك لاجل الشباب المسيحي الذي بدا يفقد لسانه اللاتيني .(١٣) وهناك اكثر من دليل يثبت مدى انتشار اللغة العربية بين المواطنين الاوربيين ، منها الكتاب الذي الفه اسيدور الاشبيلي في علم الصرف والاشتقاق اللاتيني Isidore,s Etymologia فقد جاء الكتاب المذكور معززا بهوامش وشروح باللغة العربية لتفسير وتوضيح ما اشكل فهمه من المفردات اللاتينية .(١٤) اما الشكوى التي اطلقها اسقف قرطبة فتدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الشباب الاوربي انذاك وشغفه باللغة العربية وادابها وغنائها ، الامر الذي كان يدعوهم الى اهمال ونسيان تراثهم ودينهم . يقول الفارو عن مسيحيي اسبانيا :

> هل يوجد بين المواطنين الامناء من اجهد نفسه كي يتعلم ويفهم الكتاب المقدس ، أو يقرا ما كتبه

---

(٩) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، كتاب الامالي للقالي ، خزانة الادب للبغدادي ، تزيين الاسواق للانطاكي ، وانظر كذلك : تاريخ الادب العربي لشوقي ضيف ، وحديث الاربعاء لطه حسين :

(١٠) The Encyclopedia Britannica , Vol. 27,309

(١١) انظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ، تاريخ العرب لفيليب حتي ، وانظر Cambridge Medieval History , Vol . 29.387

(١٢) H. Gehman, « The Arabic Bible in Spain , » Speculum, vol . I (1926) , 221 .

(١٣) M. Hume , The Spanish people , 105 .

(١٤) H. Farmer , Historical Facts , 23 .

وانظر ملحق – ١ – في اخر البحث .

حكماؤنا القدامى ؟ أيوجد بينهم من الهب قلبه
حب الانجيل والانبياء الاولين ؟ لا تكاد تجد في
المجمع المسيحي واحدا من كل الف قادرا
على كتابة رسالة لاخيه . المسيحيون يجهلون لسانهم
والعرق اللاتيني لا يعهم لغته . كل شبابنا قد
اطلع وتعلم وشغف بالفصاحة العربية . كلهم
قرأوا ودرسوا وناقشوا العربية باهتمام وجد ،
انهم يشرحون ويعبرون عما في اللغة العربية
من جلال ، ويتغنون ويترنمون بالقافية الواحدة
وباخر ما انجبه اللسان العربي من أغان .(١٥)

ان ما ذكره اسقف قرطبة عن شغف الاوربيين بالشعر والغناء ما هو الا جزء من ظاهرة عامة سادت المجتمع الاوربي في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد . فقد اخبرنا تايمون فيدال احد التروبادورز ان شغف الناس وتهالكهم على الشعر ونظمه وفهمه يكاد ان يكون عاما بين جميع طبقات المجتمع ، الى حد يدفع الجاهل بالشعر الى التظاهر بمعرفته لكي يجاري التيار والنمط السائدين . يقول فيدال في هذا المجال :

كل الناس من مسيحيين ويهود وعرب ، اباطرة وامراء
وملوك ودوقات وكونتات ، نبلاء ورجال دين
وكل المواطنين الاخرين عظماء وبسطاء،قد استهواهم
وشغل افكارهم وسيطر على عقولهم حب الشعر
والغناء ، حتى لا يسع السامع الذي لا يفهم شيئا
منهما الا ان يتظاهر بالفهم . (١٦)

وغني عن القول في هذا الباب ما وصلت اليه الحضارة العربية وما ابتدعه الفكر العربي انذاك في كل علم وفن ، ولا سيما في الشعر والغناء ، حتى ليخيل الى القارىء ان ما ذكره التروبادور فيدال لم يكن الا صدى للظاهرة التي وصفها القزويني في كتابه اثار البلاد واخبار العباد حيث يخبرنا ان الشغف والولوع بالشعر والقدرة على نظمه قد جاوزت الخاصة الى العامة وشملت الفلاح في حقله والامير في قصره . يقول القزويني واصفا احدى مدن الاندلس:

من عجائبها ما ذكره خلق لا يحصى عددهم انه قل
ان يرى من اهلها من لا يقول شعرا ولا
يتعاطى الادب ، ولو مررت بالحراث خلف
فدانه وسألته الشعر لقرض في ساعته اي
معنى اقترحت عليه ، واي معنى طلبت منه
صحيحا .(١٧)

ان تفوق الفكر العربي وانتشار اللغة العربية وشمولها ، مع ما ذكر عن ولوع الناس بالشعر والغناء عامة ، والعربي منهما خاصة لدلائل وقرائن تجعلنا نرجح احتمال تسرب الافكار والاراء العربية الى الغرب تسربا مباشرا ، لا سيما وموضوعنا هو الحب ، باعث الشعر والغناء وقوامهما وفحواهما .

قلنا ان التيارات الفكرية والمظاهر الحضارية تتسرب وتنتقل من شعب الى شعب ومن بلد الى اخر بطريقة مباشرة او بطريقة غير مباشرة او بكلتيهما معا . اما المباشرة فقد ذكرنا صورها واثارها . واما الطريقة الثانية التي يحتمل ان تكون الافكار العربية قد نقلت بها الى الغرب فهي الترجمة .

ومن المعلوم ان الترجمة من العربية الى اللغات الاوربية كانت شائعة انذاك . فقد تم نقل معظم المؤلفات والاعمال العربية الى تلك اللغات . ويجد المرء فيما اورده كتاب الغرب شواهد تؤيد ذلك.

(١٥) Farmer , op . cit . , 8 .
(١٦) H. J. Chaylor , The Troubadours , 122
(١٧) اثار البلاد واخبار العباد ، ٥٤١ .

فثورندايك يخبرنا انه دهش لعثوره على اعمال لكتاب عرب في مخطوطات تعود الى القرن الحادي عشر الميلادي في المتحف البريطاني (Additional 17 , 808) ويستطرد الكاتب فيقول انه عاد فلمس الاثر العربي في مخطوطات اخرى في باريس تعود الى القرن العاشر الميلادي .(١٨) ويذكر ديفد نويل ان المفكرين العرب سلموا الى اللاتينية جزءا كبيرا من تراثهم الخاص بالاضافة الى نقلهم الفكر الاغريقي الى الغرب عن طريق الترجمة . ويؤكد الكاتب المذكور ان ابن سينا لم يكتف بكشف ارسطو الى اوربا فحسب ، بل بما هو اصيل في نواح عديدة وخطيرة من المنطق والميتافيزيقا مما اثار اهتمام المفكرين والفلاسفة المتأخرين ، بما فيهم القديس توماس فجعلهم يضعونه مع العلماء الاوائل Classic (١٩) . واما ابن رشد فهو لا يقل عن ابن سينا اثرا في الفكر الاوربي اذ قام بترجمة ارسطو الى اللغة العربية وعلق على فلسفته واستنبط مبادىء واسسا جديدة كانت مثارا لنقاش الفلاسفة والمفكرين في اوروبا ، وكانت اكسفورد ، بادو ، وباريس ترسل مترجميها ونساخها ليقوموا بنقل الكتب والاعمال العربية الى اللغة اللاتينية . (٢٠) وكذلك الحال بالنسبة الى ابن حزم الاندلسي ، اذ كانت اعماله معروفة وتعاليمه منتشرة في بادو حتى زمن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦). (٢١)

ان الذي يهمنا في بحثنا هذا هو ما كتبه الفلاسفة العرب المذكورون في موضوع الحب . فقد كتب ابن سينا رسالته المشهورة في العشق ، وكتب ابن حزم كتابه المعروف طوق الحمامة في الالفة والالاف وظهرت في دنيا العرب كتب وفصول اخرى تبحث في الموضوع نفسه ، ويستشهد كاتبوها باشعارهم او باشعار مشاهير شعراء الحب . وسوف نتعرض بصورة تفصيلية للاراء والتحليلات والافكار التي جاء بها العرب في هذا المجال ونقارنها بما أتى به مفكرو الغرب في الموضوع نفسه ، وذلك لمعرفة الاصيل والمنقول وللدلالة على الاثر الذي تركه السابق في اللاحق حين ترجم ذلك السابق وهو التراث العربي الى اللغات الغربية ثم تداخل وتلاحم بأثارها وادابها ، حتى ان الشاعر فقد جاء في Inferno , n , 144 ما يلي (٢٢) :

Aristotle , like a downy butterfly , is fringed
with the Arabian border of Averros .

كما ان تمبير Tempier اسقف باريس احتوى اعمال ابن رشد مع اعمال المفكرين والفلاسفة الاوربيين ضمن لعنته المشهورة عام ١٢٧٧ ، اذ كانت تلك اللعنة موجهة ضد الذين يبشرون بوجود حقيقتين : حقيقة يعرفها المفكر والفيلسوف ، واخرى يعرفها رجل الدين . ويعتقد كتاب الغرب ان فلسفة ابن رشد تكمن وراء الكتب الملعونة . ومنها كتاب اندريس عن الحب ، ذلك الكتاب الذي اعتمد الاساس القائل ان الحب امر طبعي صالح ومشرف ان قيس بمقياس العقل ، وان الحب أمر محرّم ومفسد ان قيس بمقياس الدين ، «كان الايطالي العظيم دانتي نظر الى ارسطو وابن رشد بمنظار واحد وصنفهما على صعيد متماثل وذلك في عمله الخالد الكوميديا الالهية.

ـ التتمة على الصفحة ٦٤ ـ

(١٨) L. Thorndike , History of Magic and Experimentel Science , 698 .
(١٩) D. knowels , The Evolution of Medieval Thought, 193 .
(٢٠) M. Hume , Spanish Influence on English Literature , 11 - 12 .
(٢١) J. kelly , A History of Spanish literature , 12 .
(٢٢) O. Manelstan , « Talking about Dante , » Delos (1971) , 65 .

الحب بين ترأثين

تابع المنشور على الصفحة ٦

هناك حقيقتين متناقضتين » كما يقول اسقف باريس لاعنا . (٢٣).

لم تكن اسبانيا وما جاورها من مدن ومقاطعات هي المركزالوحيد الذي انطلقت منه اشعاعات الفكر العربي الى اوربا ، فنحن نعلم ان العرب فتحوا سيسليا في اوائل القرن الثامن الميلادي ، وان الجزيرة عادت الى ايدي النورمانديين سنة ١٠٧١ م . ولكن البلاط فيبالرمو بقي محتفظا بطابعه العربي . ففي عهد فردريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) كان باستطاعة المرء ان يجد هناك مترجمين يتقاضونرواتب ضخمة ويعملون على ترجمة الكتب العربية ، كما يشاهد المرء كثيرا من الموسيقيين والراقصين العرب في مواسم الاعياد والحفلات . وكان فردريك نفسه كما كان ابنه مانفريد من بعده من اكبر المتحمسين للعربية ، وقد وجها اهتماما كبيرا للعلوم والفلسفة الاسلامية حتى تسربت تلك التعاليم في زمنهما الى المدن الايطالية المجاورة .(٢٤) ويستطيع المرء ان يجد في روما نفسها وفي السجلات البابوية التي ترجع الى القرن الثامن والتاسع الميلاديين ما يؤيد ان العرب كانوا يزودون روما بما تحتاجه في مناسباتها الكنسية من اقمشة وملابس كهنوتية .(٢٥)

ويبدو للباحث في هذا الحقل ان الشباب في اوربا كانوا يحسون الروح العربية مؤمنة زاخرة متوثبة جياشة حولهم على الارض التي يعيشون عليها ، وفي الكتب التي يقرأونها والاغاني التي يصغون اليها ، والحكايات والقصص التي يسمعونها من الصليبيين الرائحين الى الشرق والعائدين منه . ويبدو ان تلك الروح قد استهوت هؤلاء الشباب ـ كما استهوى الوازع الديني اخرين ـ الى زيارتها والحج اليها . فنحن حين نقرأ ترجمة حياة التروبادور جوفري رودال نجد الدليل على صحة ما نقول . يذكر الكاتب الذي يروي قصة رودال ما يلي :

> كان جوفري رودال رجلا نبيلا ، واميير بلدة سليا ، احب كونتيسة طرابلس ، ولم يكن قد رآها ، أحبها من الاخبار المدهشة التي سمعها عن جمالها وكمالها من أفواه الحجاج الاتين من انطاكية ، وقد نظم الاشعار في حبها.ثم دفعته الرغبة في رؤيتها الى حمل الصليب والسفر عبر البحر.فمرض من شدة الحب والشوق مرضا كاد يؤدي بحياته وهو على ظهر السفينة ، وظن لشدة اساه انه سيموت قبل ان يراها . ولكن الركاب على ظهر تلك السفينة نجحوا بحمله الى حانة في طرابلس وهو فيرمقه الاخير .وكانتالكونتيسة قد سمعت بخبره فهرعت الى زيارته وهوعلىفراشالموت ، واخذته بين ذراعيها ، فادرك انها هي حبيبة القلب ، وصلى شاكرا الرب الذي امد في حياته ومكنه من رؤيتها قبل موته ، ومات وهو بين ذراعي الحبيبة . فأمرت بان يكون له جناز محترمومدفن في المعبد ثم أرخت قناعها حزنا عليه .(٢٦)

ان التروبادور الذي عاش الحياة العربية في بلده وفوقارضه ، ثم عاشها في قصة حبه الفتاة الطرابلسية لا بد ان يقول الشعر عربيا بالروح والمعنى وان لم يكن عربي الكلمات . وهناك ايضا قصة

(٢٣) Denomy , op . cit . , 155 .

(٢٤) A. R. Nicholson , A Literay History of the Ara- bs, 441 .

(٢٥) Farmer , op. cit . , 9 .

(٢٦) chaytor , op . cit . , 44 - 45 .

حياة وليم التاسع كونت بواتيه وهو اول تروبادور وجدت له اشعار مكتوبة كما أسلفنا . كانت لوليم هذا علاقات وثيقة بدنيا العرب . فبلدته بواتيه كانت في يوم من الايام ساحة لحرب بين الفرنسيين والعرب (٧٣٢ م). وزوجته الثالثة هي الملكة الشابة فيليبا من بلدة اراكون في اسبانيا مركز حضارة العرب في اوربا ، ولا يستبعد كما يذكر المستشرق المعروف نيكل ـ ان تكون الملكة الشابة قد جلبت في ركابها حاشية ومغنين على علم باشعار العرب واغانيهم .(٢٧) ولايستبعد ايضا ان يكون حب الاشعار والاغاني العربية وراء حمل وليم التاسع الصليب وذهابه مجاهدا على راس حملة الى الشرق ، اذ ان دائرة المعارف البريطانية تخبرنا ان وليم التاسع كونت بواتيه قاد جيشا قوامه ثلاثمئة الف رجل في حملة صليبية الى الشرق ، وغاب مدة ثمانية عشر شهرا ، عاد بعدها من يافا خاسرا الحرب ومزودا بفن الغناء وفن الحب . (٢٨) ومن جهة اخرى فان دائرة المعارف الاميركية تخبرنا ان اهم ما تميز به شعر وليم التاسع هو مخاطبة الحبيبة بكلمة (سيدي) مستعملا ضمير المذكر ، وهو اول حدث من نوعه في تاريخ الشعر الاوربي .(٢٩) ونحن نعلم جيدا شيوع مثل هذا الاستعمال في شعرنا العربي .

نعود الى كلمة تروبادور نفسها ، فالكلمة مشتقة من الفعلتروبر Trober واصل الفعل مشكوك فيه ،فالبعض يقول انه لاتيني ، والبعض الاخر يذكر انه فرنسي ولكن قاموس اكسفورد The Oxford English Dictionary يخبرنا ان القولين يشكلان صعوبة . وهذا ما يشجعنا على طرح فكرة كون الكلمة ماخوذة من اصل عربي . (٣٠) فان (طرب طربا) هي بمعنى اهتز واضطرب فرحا او حزنا ، ومعظم مشتقات الكلمة ومزيداتها كالطرب والطروب والمطراب والتطريب تتسق مع الغناء والموسيقى .

حين نتحدث عن الطرب والانه ، يجرنا الحديث الى الاثر الذي تركه الطرب العربي في الموسيقى والغناء الاوربيين من الناحيتين العملية والنظرية كما يقول الكاتب الانكليزي هنري فارمر المختص بهذا الحقل.

يقول فارمر ان التاثير العربي في الموسيقى الغربية قد نوقش واثبت في السنين الاخيرة ، وذلك من الناحيتين العملية والنظرية . اذ ان الموسيقيين الغربيين تبنوا الالات الموسيقية المستعملة لدى العرب كالعود Lute وغيرهما ، وكذلك اخذوا والرباب Repec عن العرب طريقة العزف على تلك الالات .(٣١)

اما المشرف على كنيسة وستمنستر Westminster Abbey فيؤكد الاثر الذي تركه العرب في معظم مظاهر الحياة الاوربية ، اذ يقول انه من المحتم مع ما ايقظه العرب من روح التعليم ، وما عرفناه عن الترقيم العربي وعلم المثلثات والفلسفة العربية ، ان يكون الغرب قد تاثر بفن العمارة والريازة العربية . ويستطرد الكاتب المذكور فيؤكد وجود نوع جديد من الزخرفة والريازة لا يمكن ان تكون الا عربية اسلامية الطبيعة ، وذلك في الاقواس الموجودة علىالعمارات الانكليزية . اما في فرنسا فلا زالت حتى الان ابواب خشبية مقوسة تحمل زخارف من الخط الكوفي ، تلك الزخارف الكوفية التي انتشرت حينذاك في انكلترا .(٣٢)

(٢٧) A. R. Nykle , Hispano-Arabic Poetry, 375 .

(٢٨) The Encyclopedia Britannica , vol . 27 , 309 .

(٢٩) The Encyclopedia Americana , vol . 28 , 784 .

(٣٠) غوستاف فون غرنباوم ، دراسات في الادب العربي ، تر . احسان عباس ، ٢١٦

(٣١) H. Farmer , Al-Farabi,s Arabic - Latin writing

(٣٢) w. R. Lethaly, « Medieval Architecture , » In the Legacy of the Medieval Ages , 64 .

بقي ان نقول شيئا واحدا في ختام هذا الفصل ، وذلك ان كان الفكر العربي الاسلامي قد ترك آثاره في اوربا على العلم والفلسفة والفن والموسيقى ، فلا بد ان تكون الامثلة والمقارنات التي سنوردها في الفصول الاتية ونحاول ان نثبت بها اثر الادب العربي في الادب الاوربي صحيحة ، وفي الوقت نفسه لا بد ان يكون الحب الذي غنـــاه التروبادورز ومدرستهم هو نفس الحب الذي تغنى به العذريون ومن قال الشعر في مدرستهم .

٢
طبيعة الحب

دراسة مقارنة بين التراثين العربي والاوروبي

الحب الذي نتحدث عنه في بحثنا هذا هو العشق الذي تسامى على ان يكون استهلاكا جسديا فكان انصهارا روحيا اعطى هذا العطاء السخي من الشعر الرفيع الذي تغنى به الانسان – ولا يزال – عبر القرون . هذا الحب كان دافعا حمل المفكرين بعد الشعراء على تأليف الكتب وكتابة المقالات وطرح الاحاديث بغية تحليله ودرسه وتعريف الناس به ووضع القواعد والاصول له . اما في اوربا فان اقدم محاولة من هذا النوع ظهرت في كتاب الفه باللاتينية رجل كنسي فرنسي هو اندريس دي جابلن Andreas Capellanus ، وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية تحت عنوان The Art of Courtly Love ويرجح ان يعود تاريخ تأليف الكتاب المذكور الى القرن الثالث عشر الميلادي . (٣٣) وكتاب اندريس هذا يتناول الحب من جميع نواحيه ، فيحاول الكاتب تعريف الحب وشرح اسبابه ودواعيه واعراضه وآثاره على المحبين ، وهو يضع له حدودا واصولا وقواعد ، ويفرض عقوبات على المخالفين لقوانينه والكافرين به . ويعتبر النقاد المعاصرون هذا الكتاب محاولة لاستنباط قوانين للحب الذي كان التروبادورز قد مارسوه فعلا وعبروا عنه قولا في اشعارهم . فيقول وليم دود :

> ان ذلك الحب كان نظاما system وان الافكار الواردة في شعر التروبادورز هي اساس ذلك النظام ، كتاب اندريس ما هو الا محاولة شبه علمية لارساء قوانين وقواعد لما مارسه التروبادورز والعشاق الاخرون المعاصرون لهم في دنيا الحب .(٣٤)

هذا في اوربا ، اما في البلاد العربية ، فقد كتب الكثيرون في موضوع الحب ، وظهرت مقالات وفصول وكتب تبحث في العشق ومسبباته وآثاره واحكامه وما قيل فيه وما كتب عنه . ومنها رسالة ابن سينا في العشق ، وطوق الحمامة في الالفة والالاف لابن حزم الاندلسي ، وكتاب الزهرة لابي بكر محمد بن داود الاصفهاني ومصارع العشاق للسراج ، وتزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق للانطاكي ، هذا بالاضافة الى ما جاء من حكايات العشاق واخبارهم في معظم كتب التراث كأغاني الاصفهاني ، وامالي القالي ، وخزانة ابن عمر البغدادي وغيرها . هذه الكتب معظمها سابق لكتاب اندريس الذي كتبه عن الحب ، كما ان الاشعار والامثال والحوادث التي استشهد بها مؤلفو تلك الكتب وبنوا عليها آراءهم كلها سابقة لاشعار التروبادورز واخبارهم . ومن يطلع على كتاب اندريس ويدرس ما ورد فيه من اراء وافكار فلا بد ان يدرك مدى التشابه والتماثل بينها وبين ما جاء في الكتب العربية المذكورة ، لا سيما وان المعاني في النثر التجريدي اكثر وضوحا واقرب الى الفهم منها في الشعر . لذلك سنبدأ بعقد مقارنتنا في هذا الباب مبتدئين باندريس وابن

(٣٣) Lewis, op. cit.

(٣٤) W , Dodd , Courtly Love in Chaucer and Gower , 15

سينا ، ثم نعمد الى مقارنة فكرة الحب كما عبر عنها التروبادورز والشاعر الانكليزي جوسر الذي نظم الشعر بنفس التراث ، (٣٥) بما جاء في اشعار العذريين ومن نحا نحوهم في الجزيرة وبغداد والاندلس ، من جهة اخرى .

يقدم اندريس كتابه الى صديقه المحترم وولتر ليكشف له شيئا من امر الحب . (٣٦) ويقدم ابن سينا رسالته الى صديقه الفقيه العصري بغية ايضاح القول في العشق . (٣٧) ويستطرد الكاتبان فيعالجان الموضوع ويتكلمان عن نوع من الحب متميز بظاهرة التناقض فهو حب حسي وروحي في آن واحد . هو حب جسدي ولكنه يهذب المحب ويجمل روحه بالنبل والمروءة . يعرف اندريس الحب بانه الرغبة في امتلاك الجمال الجسدي الظاهر حين تراه . فالرؤية من قبل المحب والجمال المرئي من قبل المحبوب هما منطلقا الحب الاول والثاني . اما المنطلق الثالث فهو كون العاشق شابا سليم البصر والبصيرة ، مترفعا عن النهم الحيواني ترفعا يجعل حبه مصدر نبل وغنى للنفس . يقول اندريس في هذا المعنى :

> الحب معاناة يسببها النظر (والتأمل) الى جمال الجنس الاخر . فحين يبصر الرجل المرأة اللائقة لحبه ، والصورة كما يتطلب ذوقه ، يشتهيها قلبه في الحال . وكل منا يتعرض للاصابة بهم الحب ، الا من كان شيخا كبيرا او اعمى ، او كان ذا شهوة عمياء . (٣٨)

ويرسم اندريس الحدود التي يجب على المحب ان يلتزم بها وان يتمتع ضمنها بحبه ، تلك الحدود التي تسمح بالقبلة والعناق وتحرم ما عداهما . فان اتبع المحب تلك الشروط كان حبه شريفا ومشرفا في آن واحد ، وان تعداها فان حبه لا يعدو ان يكون شهوة حيوانية . يقول اندريس مفسرا :

> انه الحب الطاهر الذي يوثق قلوب المحبين ويملأها غبطة، هذا الحب الذي قوامه التأمل الفكري والميل القلبي ، وهو يسمح بالقبلة والعناق ويستغني عن اللذة النهائية ، اذ لا يسمح بها لمن يحب حبا طاهرا عفيفا . (٣٩)

ويستطرد اندريس قائلا :

> هذا هو الحب الذي يجب ان يصبو الجميع اليه بكل قلوبهم، لانه حب يزيد على الايام بلا نهاية ، ولا يندم اهله ، هذا الحب متميز بكونه فضيلة وداعية الى اكتمال الشخصية . (٤٠)

اما اثر الحب في تهذيب العاشق واكتمال خلقه وشخصيته فقد خصه اندريس بأكثر من حديث في كتابه . فهو يخبرنا ان الحب هو الينبوع والمصدر لكل الاشياء الخيرة ، ولولاه ما عرف الانسان معنى اللطف والمجاملة والتظرف courtesy ويستطرد اندريس فيقول :

> ان الحب يحول الرجل الفظ الغليظ الى ظريف لين العريكة،

(٣٥) انظر علاقة جوسر بالتروبادورز في :
Lewis , in Shoeck, ed. 16-33 , Dodd, op, cit. , 129-207 , T. kirby, Chaucer,s Troilue, 121-246 ,K. young,«Ch-aucer,s Troilus and Criseyde as Romance, » PMLA, L 116 (1938) , 38-63 , Demony , op. cit. , 35-46 , and D.S.Br-ewee, « Love and Marriage in Chaucer,s Poetry, » Mode-rn Language Review , XIX (1254) , 461-640

(٣٦) Andreas Capellanus, The Art of Courtly love ,8.

(٣٧) رسائل ابن سينا ، ج ٣ ، « رسالة في العشق » ، ١ .

(٣٨) Andreas, op. cit. , 29-32.

(٣٩) Ibid. , 122.

(٤٠) Ibid. , 122.

ويزود الرجل الفصيح المنشأ بالخلق النبيل ، ويجمل المتكبر بالتواضع ، وان المحب لقادر على البذل ، مستعد لاسداء المعروف لاي كان من الناس ، ومن كان صحيح الحب فلا يمكن ان يكون شرها طماعا . (٤١)

ويخبرنا الكاتب في مكان اخر من كتابه عن رجل سافط الهمة ردي السلوك نبذته النساء ، احب امراة حبا صادقا والح في مرضاتها، ولم يلبث ان تحول بفضل الحب الى شخص كامل الخلق ممتاز السلوك ، واصبح محمودا لدى الجميع . (٤٢) وواضح ان اندريس في وصفه الحب وذكر اصوله وقواعده وحدوده ، انما يتحدث عن الحب خارج نطاق الزواج ، وهو يقول صراحة : « لقد اعلنا ، ونحن نتمسك بما اعلناه ، ان الحب لا يمكن ان يمارس سلطانه بين زوجين.» (٤٣) ثم يثبت ذلك القول كقاعدة اولى بين قواعده . (٤٤)

تلك هي صورة موجزة للاراء التي قدمها اندريس في كتابه « فن الحب » والذي الفه في القرن الثالث عشر الميلادي باللغة اللاتينية كما اسلفنا . فاذا عدنا الى ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) وقرأنا رسالته في العشق ادركنا التشابه بينه وبين اندريس في معالجة موضوع الحب حتى ليخيل الى القارىء ان رسالة ابن سينا كانت النموذج الفلسفي الذي اقتفاه اندريس ونسج على منواله. فرسالة ابن سينا تتكون من سبعة فصول تتحدث عن وجود العشق وسريانه في جميع الموجودات . فالموجودات كما يقول ابن سينا « اما ان يكون وجودها بسبب عشق فيها،واما ان يكون وجودها هوالعشق بعينه.»(٤٥) ويخصص ابن سينا الفصل الخامس من رسالته للحديث عن « عشق الظرفاء والفتيان للاوجه الحسان . » ويستشف من هذا الموضوع نفسه ومن الشرح الذي يتلوه ان الحب الذي يتحدث عنه الفيلسوف العربي في هذا الفصل هو حسي وروحي في وقت واحد . فالعاشق هو الفتى الظريف العاقل الذي يهيم بالجمال حين يراه ، اذ يقول ابن سينا :

ان من شأن العاقل الولوع بالنظر الحسن من الناس ، وقد يعد ذلك منه – في بعض الاحياء – تظرفا وفتوة . (٤٦)

اما الاحيان التي يعد فيها العشق تظرفا ومروءة فتحدد بما هو مستحب ومستساغ في دنيا الحب ، وذلك بنظر ابن سينا يكون بالسماح للعاشق بالعناق والتقبيل وبتحريم ما سواهما ، وبذلك يكون الحب عشقا لا فسقا ، ويسمو على الشهوة الحيوانية واللذة المحرمة ويعتبر تظرفا وداعية للمروءة والفتوة . يقول ابن سينا في هذا الباب :

وعشق الصورة الحسنة قد تتبعه امور ثلاثة : احدها حب معانقتها ، والثاني حب تقبيلها ، والثالث حب مباضعتها . فاما حب المباضعة فمما يتعين عنده ان هذا العشق ليس الا خاصة بالنفس الحيوانية . (٤٧)

وحب المباضعة كما يسميه ابن سينا « لا يستساغ الا لرجل في امراته او في مملوكته » وذلك بقصد « توليد المثل . » ويستطرد ابن سينا شارحا :

واما المعانقة والتقبيل ، فاذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد ، وذلك لان النفس تود ان تنال معشوقها بحسها اللمسي كنيلها له بحسها البصري ، فليسا بمنكرين في ذاتهما ، ولكن استتباعهما امورا شهوانية فاحشة توجب التوقي عنهما ، الا اذا تيقن من متوليهما خمود الشهوة والبراءة من التهمة ... لا الهم بالفحش والفساد . فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف ، وهذا العشق تظرف ومروءة . (٤٨)

وواضح هنا ايضا ان الحب الذي يتحدث عنه ابن سينا في رسالته والذي تستساغ به القبلة والعناق ويحرم الاتصال الجنسي،انما هو حب خارج نطاق الزواج . فنحن نعلم جيدا ان مشاهير شعرائنا العشاق انما شببوا بنساء منعن عنهم لسبب او اخر واصبحن زوجات لرجال اخرين ، فليلى وبثينة وعزة وليلى الاخيلية وعفراء واسماء وغيرهن كلهن زوجات طمرت اسماء ازواجهن وشهرت اسماء عشاقهن وهم قيس وجميل وكثير وتوبة وعروة والمرقش والصمة . ولو حدث ان تزوج العاشق من معشوقته كقيس بن ذريح ولبنى ، فلا تلبث اسباب فاهرة ان تقوم فتحمله على طلاقها ، فيعود عاشقا متغزلا باكيا، ويقضي محروما من وصالها . (٤٩)

يتبين مما رأينا ان الحب الذي تحدث عنه ابن سينا في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي يماثل الحب الذي عاد اندريس الى الحديث عنه وذكر مميزاته في القرن الثالث عشر الميلادي ، اذ ان الرجلين يصفان نوعا متميزا من الحب الذي يستساغ فيه النظر واللمس والعناق والتقبيل وما سواهما من ملذات الجسد ، مع التحلي بضبط النفس والاحتفاظ بالعفة كشرط اساسي يجعل العشق مهذبا للعاشق ودافعا يسمو بروحه الى الكمال . ومن الجدير بالذكر هنا ان ابن سينا لم يكن الوحيد بين الذين كتبوا عن الحب من العرب مؤكدين اثره الفعال في تهذيب الخصال وتزكية الروح ونمو الشخصية . فقد ذكر ابن حزم الاندلسي (٩٩٤ – ١٠٦٤) في كتابه طوق الحمامة ان من علامات الحب « ان يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعا قبل ذلك . فكم من بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تظرف ، وجاهل تادب وتفل تزين » بفضل الحب . (٥٠) وذكر السراج في كتابه مصارع العشاق قول احد الحكماء ينصح تلامذته قائلا :

اعتشقوا، فان العشق يطلق لسان العيي،ويفتح حيلة البليد، ويبعث على التنظيف وتحسين اللباس وتطييب المطعم ، ويدعو الى الحركة والذكاء وتشرف الهمة ، واياكم والحرام . (٥١)

ويروي الكتاب العرب قصة الملك وابنه الخامل . والقصة لا تختلف في جوهرها عما اورده اندريس عن الرجل الذي رفع الحب شانه . اما الحكاية التي يرويها العرب فتقول انه كان لاحد الملوك ولد ساقط الهمة فاسد الاخلاق لا يصلح بحال من الاحوال لان يكون وريث العرش وملك الورى . وكان الملك يعرف هذه الحقيقة عن ابنه. ففكر فيما يمكن ان يصلح من شأن الامير ، وعرف ان العشق وحده يفعل هذا ، فسلط على ابنه اجمل بنات المدينة يجتمعن به ويتحدثن اليه ، حتى احب الامير احداهن حبا صادقا جعله يعلو همة ويتصف باخلاق الملوك . (٥٢) ويتحدث الانطاكي عن الحب قائلا ان « افل مزاياه تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الاخلاق . » (٥٣)

---

(٤١) Ibid. , 172.

(٤٢) Ibid. , 3.

(٤٣) Ibid. , 106.

(٤٤) Ibid. , 184.

(٤٥) ابن سينا ، المصدر المذكور ، ٥

(٤٦) المصدر نفسه ، ١٥ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ١٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ١٦

(٤٩) اغاني الاصفهاني ، ٨ ، ٢١٨ وما بعده ، امالي القالي ٢، ٣١٦ وما بعده ، وتاريخ الادب العربي ، لشوقي ضيف ، ٣٦٤ .

(٥٠) طوق الحمامة لابن حزم ، ٢١

(٥١) مصارع العشاق ، للسراج ، ٢١ – ٢٢ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ٢٢ – ٢٣ .

(٥٣) تزيين الاسواق للانطاكي ، ٦ .

هذا بعض ما ذكر في اثر الحب على العاشق وقوة مفعوله في رفع شانه واعلائه . اما موضوع العفة في الحب فقد كان موضوع شك وريبة لدى البعض ، الامر الذي دعا الشعراء العشاق انفسهم الى الدفاع عن حبهم محاولين تكذيب من حاول الاساءة الى ذلك الحب . اما التروبادورز فقد اكدوا سلامة علاقاتهم مع حبيباتهم وكذب ادعاءات الجهلاء والمتقولين . اذ يخبرنا التروبادور ماركابرو ان هنالك نوعين من الحب ، احدهما طاهر صحيح ، والاخر زائف سقيم ، وان حبه كان ولا يزال من النوع الاول . يقول التروبادور في احدى قصائده :

افولها ، وقد قلتها مرارا ، وسوف اقولها ان الحب الصادق العفيف والحب الزائف لن يلتقيا ، وان احدهما ليصرخ ضد الاخر . (٥٤)

اما جوفري رودال فهو تروبادور اخر يشتاق لرؤية حبيبته وسماع صوتها ، ويعتبر النظر والسماع اعظم لذة ينالها ، فهو يقول :

ان كان يرضيها ، فسوف اكون قريبا منها ، ولو من بعيد ، وسيكون بيننا الحديث المعسول الذي يعتبره المحب اعظم متعة يتمناها . (٥٥)

ويعمد برنارد دي فانتادورن الى توبيخ الجهلاء الذين يظنون بالحب سوءا ، بينما حبه خير ودائم لانه عفيف . يقول برنارد :

ينتقد الجهلاء الحب ويعيبونه جهلا به ، ولا ضرر من الحب الذي لا يبلى ابدا ما دام عفيفا . (٥٦)

اما الشاعر الفرنسي كراتين دي ترويز الذي كتب بنفس التراث، فقد جعل بطل قصته لانسوليت ينحني امام فراش حبيبته جنيفرويتعبد، وحين يتركها نائمة ويخرج ، يدخل الى اقرب كنيسة فيصلي . (٥٧)

حين نعود الى تراثنا العربي نجد امثلة واحاديث كثيرة تؤكد العفة والطهر في الحب سواء اكان ذلك في اقوال الشعراء أم غيرهم. فجميل يدافع عن طهر حبه بثينة مؤكدا انه لم يمسها يوما بريبة . يقول جميل وهو على فراش الموت :

انا في اخر يوم من ايام الدنيا واول يوم من ايام الاخرة ، فلا نالتني شفاعة محمد ان كنت وضعت يدي عليها بريبة قط ، وان اكثر ما كان مني اليها اني كنت آخذ يدها واضعها على قلبي فاستريح اليها . (٥٨)

ويؤكد جميل ذلك في اشعاره اذ يقول :

لا والذي تسجد الجباه له　　　مالي بما تحت ثوبها وطر
ولا بفيها ولا هممت بها　　　ما كان الا الحديث والنظر (٥٩)

ويقول حين تفرقا في الصباح وكانا قد امضيا الليل معا :

وكان التفرق عند الصباح　　　عن مثل رائحة العنبر
خليلان لم يقربا ريبة　　　ولم يستخفا الى منكر (٦٠)

ويؤكد المجنون ان لوامه انما يلومون جهلا ، فهو محروم من الاستمتاع بحبه :

يلومونني في حب ليلى ولم انل　　　على اللوم في ليلى حراما ولاحلا (٦١)

وتبلغ به العفة مبلغا يجعله يشعر بالخجل من مجرد فكرة تجول بخاطره وتزين له وصل ليلى ، فهو يقول :

واني لاستحييك ان تعرض المنى　　　بوصلك او ان تعرضي في المنى ليا (٦٢)

ونقرا في تراثنا قصة العاشقين اللذين امضيا الليل بالحديث والنجوى ، حتى اذا طلع الفجر قاما للصلاة . ويذكر ان اعرابيا سئل مرة : ايسرك ان تظفر بمن تحب ؟ قال : نعم ، قيل له : فما كنت تصنع بها ؟ قال : اطيع الحب في لثمها ، واعصي الشيطان في اثمها . اما جواب العذري الدال على عفة حبه فمشهور . اذ سئل عذري يوما عن سبب موتهم من الحب ، فقال : ذلك لان في نسائنا صباحة وفي فتياننا عفة . (٦٣)

ان تلك القصص والاخبار والاشعار ومثيلها كثير لم تكن لتقنع الاخرين ــ سواء اكان ذلك في دنيا العرب ام في اوربا ــ بعفة هذا الحب . فقد اوردنا في الفصل الاول من هذا البحث خبر اللعنة التي اصدرها اسقف باريس سنة ١٢٧٧ م بحق كتاب اندريس ، لان الاسقف اعتقد ان كتاب اندريس عن الحب مفسد للاخلاق ومسيء للدين . وقصص حياة التروبادورز انفسهم تريئا الشيء ذاته . فقد احب برنارد زوجة فايزكونت فانتادورن الجميلة ونظم الشعر والاغاني في حبها . وحين ادرك زوجها ذلك ، شك في براءة هذا الحب وعفته ، فنفى برنارد خارج ارضه ، واضطر الشاعر العاشق الى الرحيل الى نورمانديا ولم يعد الى وطنه بعد ذلك . (٦٤) وهناك قصة تروى عن زوج دفعته الغيرة والشك الى قطع لسان التروبادور الذي نظم الشعر بزوجته ، وقدمه طعاما لتلك الزوجة من حيث لا تدري ، وذلك انتقاما من العاشقين حين ارتاب الزوج في سلامة علاقتهما . (٦٥)

وحين نقرا ادبنا العربي وكتب تراثنا نجد اشياء مماثلة تدل على ارتياب الاخرين وشكوكهم بطبيعة هذا الحب . فأخبار جميل بن معمر تشير الى ان رهط بثينة انما كانوا يلاحقون جميلا ويترصدون خطاه لا لنسيبه وتشبيبه بها فحسب ، بل لشكهم بطبيعة العلاقة التي تربطهما. اذ ان الاصفهاني يخبرنا عن ثقاته ان ابا بثينة واخاها سمعا يوما ان جميلا عندها ، فاتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجزة منها يحدثها ويشكوها بثه ، واستمر الاخ والوالد يستمعان الى احاديث العاشقين حتى تيقنا من طهرهما وسمو علاقتهما عن الفحش والمنكر ، وحينذاك قال ابوها لاخيها : « قم فما ينبغي لنا بعد اليوم ان نمنع هذا الرجل من لقائها » . ولكن شكاوى الزوج الغيور واحاديث الناس تفاقمت ، مما دعا اهل بثينة الى استصدار امر من الحاكم يهدر دم جميل مما اضطر جميلا الى ترك الوطن والمسير الى مصر حيث قضى هناك . (٦٦) وقد اهدر الحكام والامراء دم مجنون ليلى وقيس بن ذريح وعروة العذري وغيرهم من العشاق لنفس السبب . (٦٧)ويخبرنا القالي في اماليه ان ليلى حبيبة توبة بن الحمير اقبلت على الحجاج يوما وقد اسنت ، فسالها الحجاج وبقية شك لما نزل في نفسه رغم عشرات السنين :

ــ فهل رايت منه شيئا تكرهينه ؟

قالت ليلى :

ــ لا والله الذي أساله ان يصلحك ، ما رايت منه شيئا حتى فرق الموت بيني وبينه . (٦٨)

---

(٥٤) Denomy, « Fin Amors, » Medieval Studies, VII (1,46) , 14.

(٥٥) Ibid. , 165.

(٥٦) Bernard De ventadorn, The Songs of Bernard,82 .

(٥٧) Lewis, The Allegory of Love, 22-30 .

(٥٨) السراج ، نفس المصدر ، ٢ ، ٢١١ .

(٥٩) ديوان جميل بثينة ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ٥٤ .

(٦٠) نفس المصدر ، ٥٥ .

(٦١) كتاب الزهرة لابن داود ، ٧١ .

(٦٢) الانطاكي ، نفس المصدر ، ٨٢ .

(٦٣) نفس المصدر ، ٩ ــ ١٠ .

(٦٤) Bernard, op. cit. , 30.

(٦٥) Chaytor, op. cit. , 75.

(٦٦) الاصفهاني ، نفس المصدر ، ٧ ، ١٥٢ وما بعده .

(٦٧) نفس المصدر ، ٨ ، ١٠٨ ، السراج ، نفس المصدر ، ٢ ، ٢٨٧ ، الانطاكي ، نفس المصدر ، ٥٦ .

(٦٨) القالي ، نفس المصدر ، ٨٧ .

وقد دفعت الغيرة والشك زوج عزة الى ان يقسم عليها بشتم كثير حين علم انها قابلته ، ففعلت ذلك مضطرة ، وقال كثير حين علم الخبر :

يكلفها الغيران شتمي وما بها   هواني ، ولكن للمليك استذلت
هنيئا مريئا غير داء مخامر   لعزة من اعراضنا ما استحلت (٦٩)

اما خبر ام البنين ووضاح اليمن فيعطينا صورة قاسية لما تحمله هؤلاء الشعراء العشاق نتيجة الشك والارتياب . فقد كانت للشاعر المذكور علاقة حب بأم المؤمنين زوجة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، واحست الزوجة يوما بقرب وصول زوجها الى غرفتها حين كان الشاعر عندها ، فاضطرت الى اخفاء الحبيب في صندوق لها . وكان الزوج قد علم من بعض الوشاة بخبر الحبيب والصندوق الذي اعتاد ان يختفي فيه ، فامر بحمل الصندوق ودفنه بما فيه ، ولم يسمع خبر عن الشاعر الوضاح بعد ذلك . (٧٠)

مما رأينا يتبين لنا ان الحب الذي عبر عنه التراثان الادبيان في اوربا وفي بلادنا العربية كان مثارا لاراء متناقضة من قبل معاصريه وذلك بسبب طبيعته المتناقضة . فمن الناس من ينظر اليه من جانبه الروحي فيمجده ويثني عليه كعاطفة شريفة ومشرقة ، ومنهم من يعتبره فسقا وفحشا مفسدين للدين والدنيا ، وذلك بالنظر الى جانبه الجسدي . هذا في القديم . اما في عصرنا الحديث فليست الحال بخير مما كانت عليه قبل اجيال ، اذ تختلف نظرة النقاد والادباء في القرن العشرين الى ذلك الحب ويتناقض مفهومهم له في اوربا وفي عالمنا العربي على السواء . فنحن نقرأ للكاتب الانكليزي لويس قوله في تمجيد حب التروبادورز : « ان لم يكن ذلك الحب دينا ، فهو على كل حال نظام خلقي .» (٧١) ونقرأ للشاعر الاميركي ازرا باوند اقوالا تمجد التربادورز وتجعلهم انصاف آلهة . (٧٢) في حين يشك اخرون في سلامة ذلك الحب ويستبعدون ان يلتقي حبيبان ويتلامسا ويتعانقا ، ويقبل احدهما الاخر ثم يعفا . ويعتقد الكاتب الاميركي بنتن ان ذلك الحب لا يعدو ان يكون نوعا من الزنى ، ويقترح حذف التعبير الذي يدل عليه Courtly love من قاموس الادب . (٧٣)

هذا في الغرب ، اما في دنيا العرب الحديثة وعلى الرغم من قلة ما كتب عن هذا التراث ، فان الذين كتبوا انقسموا بالراي الى فريقين ايضا ، فطه حسين يمجد الحب العذري في كتابه حديث الاربعاء ويتحدث عن شعر العذريين قائلا : « هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الامر مرآة صادقة لطموح البادية الى المثل الاعلى في الحب من جهة ، ولبراءتها من الوان الفساد التي كانت تغمر اهل مكة والمدينة من جهة اخرى . » (٧٤) ويتحدث يوسف خليف عن الحبالعذري كماساة تدور حوادثها بين عاشقين تسيطر على حبهما العفة والاخلاص والتوحيد والحرمان والطهارة ، وبأنه انتصار الروح على الجسد وهزيمة النفس الامارة بالسوء امام المثالية الخلقية التي يؤمن بها الشاعر العذري ، ويرى الجواري وشوقي ضيف ان الغزل العذري غزل نقي طاهر ممعن

(٦٩) البغدادي ، نفس المصدر ، ٢ ، ٣٨١ .

(٧٠) الاصفهاني ، نفس المصدر ، ٦ ، ٨١ ، السراج ، نفس المصدر ، ٢ ، ١٩٢ .

(٧١) Lewis, op. cit., 36.

(٧٢) E. Pound, The Spirit of Romance, 99.

(٧٣) J. F. Benton, « Clio and Venus, » in Newman, ed., 40.

(٧٤) حديث الاربعاء لطه حسين ، ٢ ، ٢٣٨ .

في النقاء والطهر .(٧٥) ولكن من الجهة الاخرى نجد صادق جلال العظم يهاجم العذريين فيقول ان الحب العذري هو حب شهواني في اصله ، ونرجسي في موضوعه ومنحاه ، ويستطرد العظم فينحي باللائمة على هذا الحب وحكاياته التي تمجد « الحب خارج نطاق الرابطة الزوجية ولا تؤاخذ العاشقين على حبهما الزاني . » (٧٦)

ولا يسعني في ختام هذا الفصل ، وانا اؤمن بمثالية الحب ايمان العذريين ورهطهم ، اقول لا يسعني الا ان ارد على قادحي الحب وشانئيه بقول للشاعر الانكليزي جوسر وبقول اخر لشاعرنا المتنبي . اما جوسر فيقول ردا على الذين يذمون الحب محاولين ان يشوبوا صفاءه وجماله ما معناه : ماذا يضير الشمس ان عجز مرضى العيون عن رؤية ضوئها الساطع :

What is the sonne wers , of kynde right
Though that a man of feeblesse of his eyen
May nought endure on it to see for bright ? (٧٧)
(11 , 860 - 63)

اما المتنبي فيشمل في بيت واحد من ابياته المشهورة جميع الذين اعتادوا ذم الاشياء جهلا بها وعجزا وتقصيرا عن فهم حقيقتها لعلة فيهم لا في الاشياء التي يذمون . وبيت المتنبي يقول :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا (٧٨)

ـ البقية في العدد القادم ـ

(٧٥) الحب العذري للجواري، ٣٥ ، تاريخ الادب العربي لشوقي ضيف ، ٣٥٩ ، والحب المثالي عند العرب ، ليوسف خليف ، ١٩ ـ ٥٢ .

(٧٦) في الحب والحب العذري لصادق العظم ، ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٧٧) Geoffrey Chaucer, The Book of Troilus and Criseyde , ed , R . K . Root (All the Chaucerian poetic references are taken from this source) .

(٧٨) ديوان المتنبي ، ٣ ، ٤٢٩ .